



مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

التصوف في الخليج

الكتاب السادس والخمسون – أغسطس (آب) 2011

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

الصوفية في دبي

من الأفغاني إلى عبدالرحيم المرید

راشد أحمد الجميري(*)

بادئ ذي بدء نلفت نظر القارئ الكريم إلى ملاحظتين مهمتين قبل الولوج في قراءة البحث. الأولى، البحث عبارة عن دراسة أولية تستعرض تاريخ ثلاث شخصيات جسدت التجربة الصوفية في دبي⁽¹⁾. الثانية، البحث قد يعتره شيء من الخطأ النسبي، إذا صح التعبير، وذلك لندرة وضبابية المصادر التاريخية التي وثقت التصوف في ساحل عمان (الإمارات العربية المتحدة حالياً) بشكل عام وفي دبي بشكل خاص. لذلك تم الاعتماد بشكل كبير على الروايات التي سردها آخر رمز صوفي عاش في دبي، الشيخ عبدالرحيم المرید (1910 - 2007) عن والده عبدالله المرید التي تخص أخبار السيد محمد عمر الأفغاني، الذي يرجع إليه الفضل في تأسيس الطريقة الصوفية. يضاف إلى ذلك صعوبة التعريف بالصوفية، فالمصطلح لم يكن شائعاً في المجتمع، فهو يندرج ضمن معاني الفضائل مثل الزهد والورع⁽²⁾. لذا فالدراسة مفتوحة للنقد والتمحيص للمختصين حتى تصل إلى مرحلة من الاكتمال والنضج.

(*) باحث من الإمارات العربية المتحدة.

(1) نعني في هذا البحث: السيد محمد عمر الأفغاني - الشيخ عبدالله المرید وابنه الشيخ عبدالرحيم المرید، سنتوسع في شرح سيرهم في الصفحات القادمة، نقصد بالتصوف في هذه الورقة، تصوف الطريقة.

(2) الدكتور الشيخ عيسى المانع، مقابلة في 27 / 10 / 2010.

تعود الجذور التاريخية للتصوف على ساحل عمان (الإمارات العربية المتحدة حالياً) إلى ما يقرب الثلاثمئة سنة، فمن خلال الوثائق التاريخية وجدت إشارات إلى أنه كانت هنالك طقوس صوفية تمارس في منطقة الصير (رأس الخيمة حالياً) في القرن السابع عشر الميلادي، على يد المتصوفة الحضارمة الذين جاءوا من تريم⁽³⁾ يحملون الطريقة العلوية الحدادية⁽⁴⁾. وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهرت الطريقة القادرية⁽⁵⁾ في دبي على يد الصوفي المسمى السيد محمد عمر الأفغاني. لم يكتب للتجربة العلوية الحدادية أن تستمر طويلاً، فقد خسر التصوف أرضيته منذ وصول مد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر بقيادة مطلق المطيري؛ وإعلان القواسم اعتناقهم المذهب الوهابي. أما التصوف في إمارة دبي فكتب له أن يعيش إلى يومنا هذا. وقد ساعدته عدة عوامل على التماسك والرسوخ، الأول العامل المذهبي، إذ لم تتأثر القبائل والأسر القاطنة في إمارة دبي بالدعوة الوهابية كما هي في إمارتي الشارقة ورأس الخيمة، وإنما بقيت متمسكة بالمذهب المالكي والشافعي، اللذين ليس لهما أية تحفظات على التصوف. أما العامل الثاني فقد تم تبنيه من قبل الأسرة الحاكمة (آل مكتوم)، ويعتبر الشيخ سعيد بن مكتوم آل مكتوم حاكم دبي (1912م - 1958م) أحد المریدين عند السيد الأفغاني.

يُجمع من عاصر الشيخ عبدالرحيم المرید على أن السيد محمد عمر الأفغاني هو الأب الروحي والمؤسس الأول للطريقة الصوفية في دبي. وهو الذي استحدث احتفال "المولد النبوي" المعمول به حالياً في الإمارات العربية المتحدة. وامتاز نموذج تصوف دبي بعلاقة الشيخ بمريديه الاجتماعية، ولم ينكفئ على نفسه كحياة زهد وورع وتقوى وحلقات ذكر الله فقط، وإنما أوجد له حضوراً اجتماعياً واسعاً في المناسبات الاجتماعية والدينية، تمثلت في ممارسة طقوسه الفريدة، ومن أشهرها إحياء الموالد النبوية وجلسات ضرب الدبوس وحلقات ذكر الله.

(3) مدينة في حضرموت مشهوره بالعلم والحياة الروحية تعتبر مصدر التراث الصوفي اليمني.

(4) نسبة إلى السادة العلويين في حضرموت باليمن.

(5) الطريقة القادرية، نسبة إلى مؤسسها الإمام محيي الدين أبو محمد عبدالقادر الجيلاني (1048م - 1139م)، راجع: الدكتور السيد محمد عقيل بن علي المهدي، دراسة الطرق الصوفية، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1993م، ص161.

أما في وقتنا الحاضر فيشهد التصوف تحدياً على الساحة الدينية في أداء دوره التقليدي الروحي في دبي، إذ يخيم على المشهد تراجع وحالة من الركود بعد موت أحد أبرز آباءه الشيخ عبدالرحيم المريد في عام 2007، إذ بفقدته فقد التصوف زخمه الروحي الكبير، الذي كان ملهم الأتباع والمريدين في منطقة الراشدية بدبي. إلا أنه بقيت بعض البيوت في دبي تحيي أبرز فنونه، المولد النبوي في المناسبات الدينية، كليلة النصف من شعبان ويوم ال12 من ربيع الأول، احتفالاً بمولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبعض الأحيان في أواخر أيام الأسبوع، أما طقس الضرب بالحديد، فلم يمارس قط.

يهدف الباحث من هذا الدراسة إلى تحقيق هدفين:

أولاً: إضافة دراسة أولية وجمع أخبار التصوف والمتصوفة، فحتى وقتنا الحالي هناك ندرة في الدراسات التي تغطي الظواهر والحركات الدينية التي نشأت على ساحل عمان. لذا سنحاول من خلال هذا البحث، تقديم عرض شامل لتاريخ التصوف في منطقة ساحل عمان، ثم سنخرج على متصوفة دبي بشكل خاص.

ثانياً: تعريف من هم صوفية دبي، ومحاولة توضيح من هم هؤلاء الذين يسمون بالصوفية، فكلمة التصوف أو صوفي فضفاضة في معانيها، إذ يصعب وصف وتصنيف سالك ما بأنه "صوفي" أو جماعة ناسكة وذات أوراد بأنها "صوفية". فمفردة التصوف أو هذا الشخص "صوفي" لم تكن دارجة ضمن المصطلحات المستخدمة على السنة الناس. يشرحها الباحث خالد البدور⁽⁶⁾ قائلاً: "وعند التطرق لموضوع التصوف في المنطقة وبالأخص إمارة دبي فإننا نتحدث عن شخصيات أثرت الزهد والعبادة وتفرغت لها، وكان يطلق على الزهاد والنساک صفة "أهل الله" أو "أهل الذكر" أو المشايخ والعلماء أو من سلك "طريق القوم"، ولم نجد في أية أدبيات أو ما قاله الرواة أي ذكر لصفة "الصوفية"⁽⁷⁾. ولكن الطقوس والطرق المتعارف عليها في أدبيات التصوف الاسلامي

(6) خالد البدور شاعر وسينمائي من الإمارات: أنتج فيلماً وثائقياً عن حياة الشيخ عبدالرحيم المريد.

(7) خالد البدور، مقالة غير منشورة، سيرة الشيخ عبدالرحيم المريد، 2009.

كانت تمارس من قبل الأفغاني ومريديه، كالعلاقة بين الشيخ ومريديه واحتفالات المولد النبوي واستعراض قوة الشيخ الروحية كالضرب بالحديد وطعن الجسد بالسيف.

قسمنا الدراسة إلى أربعة مباحث، الأول مدخل تاريخي عن متصوفة الصير، المبحث الثاني: التأسيس - الصعود - الانحسار. والمبحث الثالث: الصعود. وفي المبحث الرابع: مرحلة الركود، وسنعطي لمحة عن وضعه الراهن ومن هي الأسر التي ما زالت محافظة على التقاليد الصوفية في دبي.

المبحث الأول: المدخل التاريخي لمتصوفة الصير

التصوف العلوي الحدادي:

تاريخ التصوف على ساحل عمان يشوبه الكثير من الغموض وتكثر فيه الحلقات المفقودة. إذ يصعب ذكر أخبار الطرق الصوفية أو لفظ الصوفي أو صوفية في المخطوطات المحلية أو حتى في الوثائق الأجنبية سواء البرتغالية أو الهولندية أو الإنجليزية، لأنها أهم المصادر التاريخية لساحل عمان. حتى في كتاب (دليل الخليج) لمؤلفه لوريمر، عندما مسح الحركات والظواهر الدينية في الخليج، قال: "يقال إنه لا يوجد صوفيون في الخليج"⁽⁸⁾. ولكن مخطوطة الرحالة اليميني علوي بن أحمد بن حسن الحداد المسماة "المواهب والمن في مناقب الحسن"⁽⁹⁾ المدونة في سنة 1803م، هي واحدة من المخطوطات المهمة التي توثق لحقبة التصوف في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر للميلاد. تضمنت في بعض صفحاتها إشارات عن الفرقة العلوية الحدادية في منطقة الصير، وهي جزء من التقليد الذي كان معمولاً به في الظاهرة الصوفية اليمينية التي وسعت سياحتها

(8) راجع: ج.ج. لوريمر، دليل الخليج - القسم التاريخي - الجزء السادس، ص3412، طبعة أعدها قسم الترجمة التابع لمكتب سمو أمير دولة قطر خليفة بن حمد آل ثاني.

(9) اكتشف هذه المخطوطة الكاتب الإماراتي أحمد راشد ثاني وهو في زيارة إلى اليمن في 1995، للمزيد راجع كتابه: رحلة إلى الصير، أبوظبي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث 2007.

لتشمل مناطق قصية من آسيا وأفريقيا. المخطوطة هي شرح مناقب جد المؤلف القطب الحسن بن عبد الله العلوي (1688-1776م). وضمّن "هذا الرحالة الصوفي" من خلال مخطوطته ما يقرب من ثلاثين صفحة دون فيها مذكراته لرحلاته في الجزء الجنوبي الشرقي من الخليج العربي، الصير وجوعمان⁽¹⁰⁾، ويبين لنا بأن المد الحضرمي الصوفي وجد له موطناً قدم وحضوراً قوياً لدى شيوخ القواسم وقبيلة الزعاب، بالإضافة إلى أن زيارات أضرحة الأولياء كانت حاضرة بشكل قوي.

كان هدف هذا الرحالة زيارة ضريح عمه، زين العابدين بن عبد الله العلوي (1693 - 1744م) الذي عاش عشرين سنة في الصير. زار علوي بن الحداد الصير ثلاث مرات، امتدت ما بين 1782م إلى 1803م. ويشرح الكاتب أحمد راشد ثاني قصة المد الحضرمي إلى المنطقة: "وعلى ما يبدو فإن أول من وصل من (السادة العلويين) الحضارمة إلى المنطقة هو هارون بن الشيخ العطاس، حيث أمره قطب الإرشاد عبد الله الحداد (1634- 1719م) بسكن جو عمان لنشر السنة. ولعل وجود هارون في الجو، وغيره من أتباع هذه السنة في الصير، هو الذي أوعز لعم علوي بن الحداد، زين العابدين الحداد بالاستقرار فيها بعد ذلك إلى أن توفّي". وأصبح قبره ضريحاً في الجزيرة الحمراء يزوره أتباعه.

كانت هذه الزيارات تهدف إلى توثيق العلاقة بين أتباع جده الحداد الكبير وأحفاده، من ماتوا ودفنوا في الصير أو مايزالون أحياء. أنتج هذا التواصل الحضرمي تأثير بعض القبائل، كما تحمس الزعاب للنزعة الصوفية العلوية حتى وصل الأمر ببعض العلويين إلى مصاهرتهم⁽¹¹⁾.

تدلنا هذه الإشارات إلى أنه كانت هناك حركة صوفية نشطة منذ مطلع القرن الثامن عشر؛ ولها امتدادات من حضرموت إلى عمان إلى رأس الخيمة إلى الإحساء⁽¹²⁾،

(10) جو عمان: من التسميات القديمة لمدينة العين الحالية التابعة للمنطقة الشرقية لإمارة أبوظبي.

(11) المصدر السابق، أحمد راشد ثاني، الصير، ص 109.

(12) مصدر سابق، ص 112، بتصرف.

ومن مختلف العالم الاسلامي، يشدون الرحال إلى منطقة الصير. إذ يذكر العلوي في مخطوطته عن العلماء المتصوفة الذين كانوا يقطنون في الصير ومن أين جاءوا. ف " السيد المكاشف الولي البهلوي الملامتي نور" كان من رجال الخطوة⁽¹³⁾، ومن ذرية السيد عبدالقادر الجيلاني وله كشوفات عظيمة وله كرامات كثيرة وخوارق عادات. أيضا كان من زوار ضريح زين العابدين، ويمارس "ملاميته"⁽¹⁴⁾ في بعض البلدات التابعة للقواسم، توفي في 1780م ببلدة ضنك⁽¹⁵⁾ وبني على قبره قبة.

كما يذكر عن الشيخ العلامة محمد بن روعي الحجازي، الذي ولد في الحجاز وارتحل إلى الأحساء وسكن بباطنة عمان، أنه يجيز الطريقتين القادرية والحدادية العلوية⁽¹⁶⁾. والعلامة الشيخ عماد الدين بن أحمد أتى من فارس هو وتلاميذه. كما استوطن الصير رجل من المغرب اسمه محمد بن أبي القاسم المعروف بأبي الطيب المغربي، ولد في المدينة من أبوين مغربيين. ذهب إلى المغرب ومن ثم إلى حضرموت والتقى بعبدالله العلوي "الجد الأكبر" للعلوي بن الحداد صاحب المذكرات، ثم ارتحل إلى الأحساء ثم استقر في الصير، وكان مالكي المذهب. استمر متصوفة الصير في ممارسة طقوسهم حتى أواخر القرن الثامن عشر، عندما أعلنت رأس الخيمة انضمامها لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

ففي عام 1799م حاصرت القوات النجدية بقيادة مطلق المطيري⁽¹⁷⁾ رأس الخيمة، واستمر الحصار سبعة عشر يوما، واجهت فيه قوات القواسم العطش، فقرر الشيخ صقر بن راشد القاسمي (1777 - 1803م) أن يفاوض المطيري، وكان من أهم

(13) رجال الخطوة هي صفة في أدبيات التصوف تطلق على كل من يمتلك تلك القدرة الخارقة على قطع مسافة طويلة جداً في خطوة واحدة أو في لمح البصر، فلا يعوقهم بحر ولا جبل. أو أنها تلك القدرة على التواجد في أكثر من مكان في نفس اللحظة. يعتقد بأن تلك القدرة يختص الله بها بعض عباده الصالحين أو الأولياء ذوي "الكرامات" بحسب ما يصفونهم. المصدر: <http://ar.wikipedia.org> تاريخ الزيارة : 1 يونيو، 2011 ، الساعة 10 صباحا.

(14) الملامتية طريقة من طرق الصوفية، نسبة إلى لوم النفس لأن أتباعها كثيرون من لوم انفسهم، وقيل إنها ترجع إلى اسم ناشر مبادئ هذه الطريقة وهو أبو حفص الحداد الملاماتي، المتوفى سنة 264 هجرية، راجع: ممدوح الزويي، الطرق الصوفية: ظروف النشأة وطبيعة الدور، سوريا دمشق 2004، الطبعة الأولى، الأهالي للطباعة والنشر، ص 97.

(15) ضنك اليوم هي إحدى ولايات منطقة الظاهرة في سلطنة عمان

(16) مصدر سابق، أحمد راشد ثاني، رحلة إلى الصير، ص 109.

(17) قائد عسكري سعودي، أرسل من قبل الأمير عبدالعزيز بن محمد أمير الدرعية في نجد لإقليم عمان ، توفي سنة 1807م.

شروط النجديين أن يقوم القواسم بإزالة قبور الأولياء. ويذكر هذه القصة د. فالح حنظل في كتابه "المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة": ويبدو أن القائد السعودي المطيري كان صعباً جداً في مفاوضاته؛ وفي شروط الصلح وكان من أهم شروطه هو أن يقوم القواسم بهدم قبة السيد حسن، وهو مقام معروف في الصير في رأس الخيمة يعظمه ويجله القواسم، فالسيد حسن كان المرشد الديني للشيخ راشد بن مطر وكان المطيري يقول: لا أقبل إيمان القواسم إلا بتهديم قبة السيد حسن بأيديهم، لأكون شاهداً على فعلهم عند إمام المسلمين عبدالعزيز. أظهر القواسم رفضهم في بادئ الأمر، إلا أن إصرار المطيري على ذلك دفع بالشيخ صقر بن راشد إلى أن يقوم بنفسه وجملة من الأعيان بإزالة القبر⁽¹⁸⁾.

ويكشف لنا العلوي من خلال مخطوطته استيائهم من تعاليم ابن عبد الوهاب واعتبارها من "البدع العظيمة من النجدي صاحب الدرعية"، ورد عليهم في كتاب أسماء "السيوف الباتر لعنق المنكر على الأكابر". وفي زيارة العلوي الثانية إلى عمان يصف حالة الناس بعد أن اقتحمت جيوش الدرعية معاقلهم وقل أتباعها "رأى وسمع بأمور عظيمة من البدعي النجدي، حدثت في بلدان عمان وذلك لموت العلماء بها وبقي من لا يستمعون لكلامه إلا القليل". ورأى خلقا بعمان وغيرها من الجهات دخل في قلوبهم مما أتى به ابن عبد الوهاب. وبذلك تنتهي أخبار الصوفية العلوية الحدادية على ساحل عمان ولم يتبق من هذه الطريقة إلا بضعة أحفاد مازالوا يعيشون في الإمارات العربية المتحدة، وبعضهم في البحرين⁽¹⁹⁾.

المبحث الثاني:

التأسيس محمد عمر الأفغاني (1886 - 1918 م)

يصعب تحديد متى بدأت الطريقة الصوفية في دبي، كما أشرت في البداية، فهو قد يكون موجوداً منذ عصور قديمة، لكن لم توجد حتى الآن أية دلائل تاريخية توثق ذلك.

(18) فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة، لجنة التراث والتاريخ، دولة الإمارات العربية المتحدة، الجزء الأول، ص 275.

(19) المصدر السابق، أحمد راشد ثاني، الصير، ص 118.

الصوفية في دبي من الأفغاني إلى عبدالرحيم المرید

ولكن الخيط الوحيد الذي قد يقودنا إلى تاريخ الصوفية في دبي، هو فن "المالد"⁽²⁰⁾. والمالد (المولد النبوي) هو فن شعبي ذو صبغة دينية، وهو في الوقت نفسه طقس من طقوس الصوفية، لأنه يعتمد على ذكر الله والمدائح النبوية في إحياء ذكرى المولد النبوي الشريف⁽²¹⁾. ومما لا خلاف عليه أن أشهر الفرق والمذاهب التي تحيي هذا الفن هم الصوفية.

فمن أسس المالد في دبي ومن هم رواده؟

كل ما توفر لنا هو أنه في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وفد إلى منطقة ساحل عمان رجل يدعى السيد محمد عمر الأفغاني؛ وكان قد شُهر بتظيم حلقات المالد⁽²²⁾. ويتفق كل من الدكتور الشيخ عيسى بن مانع الحميري، وإبراهيم بن حميدان، والشيخ حمدان المعمري⁽²³⁾، على أن هذا الرجل هو الأب المؤسس الذي يعود له الفضل في تأسيس الطريقة القادرية الصوفية في إمارة دبي.

ونظراً لعدم وجود أية مصادر مكتوبة عن الأفغاني، فقد اعتمدت بشكل أساسي على روايات الشيخ عبدالرحيم المرید التي يرويها عن أبيه عبدالله المرید الذي كان مریداً عند شيخه السيد الأفغاني. ثم مقارنتها مع الأحداث التاريخية التي برزت في القرن التاسع عشر ميلادي على سواحل الخليج العربي وساحل مكران، ثم إسقاطها على حياة الافغاني فهي كفيلة بأن تقرب لنا الصورة وتجعلنا نتعرف أكثر على السيد الأفغاني.

(20) يلفظ أهل دبي احتفال المولد النبوي بـ "المالد".

(21) المولد النبوي الشريف 1430 هـ - 2009 م - تكريم رواد المالد، وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع، ص 5.

(22) مصدر سابق، ص 5.

(23) عيسى المناع : مدير عام دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدبي 1993 - 2002 ومؤسس كلية الامام مالك في مقابلة 30 / 10 / 2010، إبراهيم بن حميدان : أحد المقربين من الشيخ عبدالرحيم المرید وهو من يتولى إقامة المالد اليوم، في مقابلة 23 / 11 / 2010، حمدان المعمري : خليفة الشيخ عبدالرحيم المرید في عمان ومؤسس فرقة المرید التراثية للمولد النبوي، في مقابلة 26/11/2010م - سلطنة عمان.

جاء السيد الأفغاني إلى دبي في عهد الشيخ حشر بن مكتوم بن بطي، أي حوالي (1859-1886م)⁽²⁴⁾، أما من أين جاء، فتوافر لدينا روايتان. تشير الرواية الأولى التي تنقسم إلى روايتين إلى : أنه وفد من الحجاز مع قوم من أهالي دبي، كانوا يحجون بيت الله الحرام فرأوا هذا الشيخ في الحرم المكي عابداً ومعلماً، فدعوه إلى بلدهم وأثوا به⁽²⁵⁾. والقول الثاني انه جاء من البحرين مع عرب من بني ياس⁽²⁶⁾. بينما الرواية الثانية⁽²⁷⁾ تقول: "أنه جاء من مصر، بعد رحلة علمية طويلة قطعها من أفغانستان قاصداً زيارة قبر السيد عبدالقادر الجيلاني في بغداد ثم إلى مصر قاصداً جامع الأزهر⁽²⁸⁾، ودرس فيه حتى تخرج، ثم رحل إلى أبوظبي ثم إلى دبي". ويصف الأستاذ عبدالغفار حسين الأفغاني بأنه "رجل شغلته العبادة عن السياسة، وكاد الإنجليز وممثلوهم في دبي والشارقة يعترضون على وجوده، إذ ظنوه في البداية مشاكساً لهم كما كان عليه الأفغاني المشهور جمال الدين الأفغاني، ولكنهم اكتشفوا بأنه من الصوفية الذين طلقوا الدنيا ولاذوا بالزهد"⁽²⁹⁾.

أما لماذا جاء. فلا يوجد تفسير محدد إلا من خلال تحليل حادثة إرسال السلاح من دبي إلى أفغانستان في عام 1915م، والتي جعلنا نتساءل ما دخل شيخ صوفي يقيم احتفالات نبوية وحلقات الذكر في شراء أسلحة وإرسالها إلى أفغانستان؟ ولكن قبل الاجابة على هذا السؤال حريٌّ بنا استعراض الأحداث السياسية التي كانت في فترة حياة الأفغاني.

ففي العام 1902م بدأ تحالف حكام ساحل مكران مع الثوار الأفغان الثائرين في وجه بريطانيا، وفتح باب توصيل السلاح لهم من ساحل الخليج إلى أفغانستان. وفي 1906م حصل ممثلو الحركات الأفغانية على الدعم من الأمير بركات في ساحل مكران،

(24) عبدالغفار حسين، رحيل الصوفي الكبير وزعيم المالد الشيخ عبدالرحيم المريد، مقال، جريدة الخليج، أكتوبر 2007.

(25) عبدالغفار حسين، مصدر سابق

(26) في مقابلة 06 / 11 / 2010 مع حسين عبدالغفار (ابن أخت الشيخ عبدالرحيم المريد) ، دبي.

(27) إبراهيم بن حميدان، مصدر سابق.

(28) الشيخ عبدالرحيم المريد يؤكد بأن الأفغاني درس في الأزهر. في مقابلة مسجلة - 23 مارس - 2005 قرية غضفان، ولاية لوى، سلطنة عمان .

(29) عبدالغفار حسين، رحيل الصوفي الكبير وزعيم المالد الشيخ عبدالرحيم المريد، مقال، جريدة الخليج، أكتوبر 2007.

الصوفية في دبي من الأفغاني إلى عبدالرحيم المريد

ودعم العديد من المشايخ في ساحل الامارات، وعمان في ثورتهم المعادية ضد الاحتلال البريطاني في أفغانستان⁽³⁰⁾.

إذا ربطنا حادثة التهريب هذه بالأحداث التي كانت دائرة في إقليم مكران نفترض الآتي: فبالرغم من تصوف الأفغاني وهذا مما لاشك فيه، إلا أنه قد يكون من ضمن الأفغان الذين كانوا يتوافدون على سواحل الخليج العربي لشراء السلاح وإرساله إلى أفغانستان ضد الاستعمار البريطاني⁽³¹⁾. وندعم هذه الفرضية بأن مجيء الأفغاني إلى دبي في فترة حكم الشيخ حشر بن مكتوم والتي هي تقريبا ما بين 1859-1886م، وهي فترة انتعاش تجارة السلاح في الخليج العربي ودبي. لذا فتجارة السلاح قد تجيب على جزء كبير من السؤال الذي طرح: لماذا جاء؟

محطة أبوظبي

في بداية قدومه مكث محمد عمر الأفغاني ومعه ثلاثة من الأفغان في أبوظبي⁽³²⁾، وعمل إماماً للمصلين في مسجد "مطر بن مطر"، وكان من بين المصلين بعض شيوخ أبوظبي من آل بوفلاح⁽³³⁾. وبقي الرجل في كنفهم، باعتباره رجلاً صالحاً، لا يرون فيه ما يثير الريبة، إلى أن بدأ يظهر لهم الكرامات⁽³⁴⁾. يقال إن حادثة الخنجر كانت الحادثة الأولى التي بها كسب الأفغاني قلوب الناس وبداية ذبوع صيته في أرجاء المعمورة.

يذكر الشيخ عبدالرحيم: "رأى الأفغاني أحد أبناء شيوخ أبوظبي يحمل خنجراً، فأمسك بيده وقال له ما هذا؟! فرد عليه: خنجر نقاتل به العدو، فرد الأفغاني بأنه مستحيل

(30) بن دغار، رحلة الكابتين فلوير 1876 عبر الساحل في نهاية عهد الحكم العماني مع ملحق الأحداث التاريخية، الفرات للنشر والتوزيع، سبتمبر 2008، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ص 245 - 246، 250.

(31) أثناء قيام الحرب الأفغانية الثالثة 1879م تدفق عدد كبير من الأفغان إلى مياه الخليج للتزود بالأسلحة عبر ميناء جواد العماني على ساحل مكران، راجع: فاطمة بنت محمد بن سليمان الفريحي، تجارة السلاح في الخليج العربي 1297 - 1333هـ / 1879 - 1914م، دار الملك عبدالعزيز، سلسلة الرسائل الجامعية، 1425هـ / 2004م، ص 117.

(32) لم يوجد أية أخبار عن الأفغان الباقين.

(33) خالد البدور، صفحات من تاريخ الصوفية بدولة الامارات العربية المتحدة، سيرة الشيخ عبدالرحيم المريد، 2009.

(34) نورد قصص الكرامات كجزء من أدبيات التصوف.

هذا خنجر، فأمسك برأس الخنجر بأصبعيه ولفه كما يلف الخبزة ، فأنكروا عليه، وقالوا ماذا فعلت بها يا سيد؟، فمسح عليها مرة أخرى بأصبعيه فردها كما كانت⁽³⁵⁾، وبهذه الحادثة يكسب الأفغاني قيمته الدينية والروحية، ويصعب على أحد ان يتهمه بالسحر أو الشعوذة لما رأوا منه من صلاح وتقوى وعبادة ومكوث دائم في المسجد، ولأنه من أولياء الله الصالحين. استمر السيد الأفغاني سبع سنين في أبو ظبي، ولم يذكر الكثير عن أخباره، وبعدها ارتحل إلى دبي.

الانبعاث الجديد

يعد قدوم الأفغاني من بين أهم العوامل التي بعثت أخبار وسيرة التصوف في المنطقة، بعد أن انقطعت أخباره من رأس الخيمة⁽³⁶⁾. كانت الساحة الدينية مهياة لمجيء شيخ صوفي يستعرض قدراته الروحية، فالممارسات الدينية مثل زيارة قبور الأولياء وتعظيمهم كانت حاضرة⁽³⁷⁾، لذا لم يواجه معارضة دينية من قبل أهالي دبي بحكم أنهم مالكية⁽³⁸⁾، بمعنى بم تكن لهم حزازات تجاه التصوف وطقوسه. تشير بدايات الأفغاني في دبي أنه سكن في مسجد " الشيخ مبارك " في منطقة الشندغة⁽³⁹⁾، واعتكف في المسجد. ولاحظ الناس أن هذا الرجل منقطع للعبادة ولا يغادر المسجد، حتى وثقوا به وطلبوا منه أن يقوم بتدريس أطفالهم القرآن وعلوم الدين.

ثم انتقل للإقامة في منطقة الرفاعة في بر دبي، وقد أصبح معروفاً إلى درجة أن الموضوع الذي سكنه كانت به بعض أشجار السدر وقد سميت بعد ذلك بـ (سدر السيد)⁽⁴⁰⁾، ومن هناك بدأت سمعة الأفغاني تنتشر في القرى والبلدات المجاورة. في تلك الفترة

(35) مصدر سابق، مقابلة مسجلة مع الشيخ عبد الرحيم المريد، ويسند هذه الحادثة الشيخ حمدان المعمرى على أن في التصوف: " كل ولي على قدم نبي "، وهذا قدم النبي داود عليه السلام، إلا أنه الحديد.

(36) لم يجد الباحث أية أخبار عن اتباع الطريقة العلوية الحدادية بعد دخول الوهابية في رأس الخيمة، قد نستدركه في بحث آخر.

(37) أهمها كان قبراً يسمى قبر "الولي".

(38) المذهب المالكي هو أحد المذاهب الفقهية السنية الأربعة الكبرى في العالم الإسلامي، وسمي بالمالكي نسبة إلى الإمام مالك بن أنس، راجع: د. مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الطبعة الخامسة، المجلد الأول، الناشر دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، 2003م، ص 116.

(39) من أقدم الأحياء في دبي، وزائر المنطقة اليوم، سيرى أهم معالمها القرية التراثية وبيت الشيخ سعيد بن مكتوم.

(40) خالد البدور، مصدر سابق، بتصرف.

الزمنية، كانت عمان سبّاقة في إقامة الموالد النبوية وحلقات الذكر التي يقيمها المتصوفة قبل الإمارات⁽⁴¹⁾، وبالأخص في مناطق الباطنة. كان الشيخ السيد أحمد الهاشمي من علماء ولاية المصنعه يجمع أتباعه في منزله حيث تقام حلقات الذكر والموالد النبوية⁽⁴²⁾. ومن بين هؤلاء الحضور رجل يدعى أحمد الكوخردي⁽⁴³⁾، وابنه عبدالله بن أحمد الكوخردي. تنامى إلى سمعهم وجود السيد محمد عمر الأفغاني في دبي، فشدوا إليه الرحال في عام 1880م. ونزلوا عند مقره في بر دبي والقريب من حصن الفهيدي⁽⁴⁴⁾، فحرب بهم وأصبح الأب والابن مريدين للسيد محمد عمر الأفغاني. بعد فترة قصيرة توفي الأب الشيخ أحمد الكوخردي وبقي الشيخ عبدالله بن أحمد خادماً للسيد، وفي معيته وفرقته الصوفية وأحد كبار أتباعه بعد ذلك حتى أطلق عليه لقب بـ "المريد"⁽⁴⁵⁾.

التصوف والمدرسة الحنبلية

لم يكن لدى المدرسة الحنبلية خلاف مع الموالد النبوية على خلاف المدرسة وقد بدأ صيت الأفغاني وممارساته بالذيع عند الأهالي؛ وكانت توجد جماعة من الحنابلة في الشارقة ودبي تنكر الموالد عليهم وتراها بدعة ضلالة. ولكن علماء دبي لم يعترضوا على إقامة المولد وإنما ينكرون طقس "ضرب الدبوس أو أكل الزجاج"⁽⁴⁶⁾. ويروي عبدالرحيم المريد هذه القصة الآتية⁽⁴⁷⁾: "جاء قاضي حنبلي من الشارقة وابنه قاصدين الأفغاني، وكان السيد محمد عمر لا يقوم إلا لمشايخ الدين، فقام له وسلم عليه. فبدأ القاضي حديثه مبيناً أن هذه الاعمال التي يقومون بها مخالفة للدين، وخاصة ضرب السيف والذكر الجوفي⁽⁴⁸⁾. فأمر الأفغاني خادمه قمبر لكي يأتي بالكتب الدينية، وبدأ الأفغاني حواراً مع

(41) مقابلة المعمري، مصدر سابق.

(42) خالد البدور، مقالة غير منشورة، حول حياة الشيخ عبدالرحيم المريد.

(43) وفي بعض الروايات: "الفارسي"، المعمري.

(44) حصن الفهيدي حالياً، هو متحف دبي.

(45) المريد تعنى: "الذي صح له الابتداء وقد دخل في جملة المنتقطعين إلى الله تعالى".

(46) مصدر سابق، عيسى المانع.

(47) مصدر سابق، تسجيل صوتي، الشيخ عبدالرحيم.

(48) يوجد في التصوف نوعين من ذكر الله، الجهري والجوفي، الجوفي هو إخراج الصوت من جوف الذاكر، وأتباع الطريقة النقشبندية يمارسونها.

القاضي، مستندا بأن هذه الأعمال التي يقومون بها لا تتعارض مع الدين. أصر القاضي على رأيه، فأتى الأفغاني بدليل ثانٍ وثالث، ولم يقتنع القاضي. فأمر الأفغاني خادمية قمبر و بلالا بضرب القاضي، فانها لا عليه بالضرب. قال له السيد الأفغاني: "أذهب وبلغ حاكم دبي أو القنصل البريطاني"، فذهبوا يشكون أمرهم للانجليز. فرد المسؤول البريطاني: "لماذا تذهب إليه، هذا لا أحد يقدر عليه".

أيضا تظهر لنا الرسالة المسماة "نبي دُعي في دبي" لصاحبها مبارك بن سيف الناخي (1898-1982) (49) التي نشرتها مجلة المنار العام 1929، إلى النقد الموجه لبعض الممارسات عند الأفغاني ومريديه وعن قدوم أناس خارج دبي أتوا لطلب المدد منه حتى بعد مماته. جاء في مطلع الرسالة: "قدم إلى دبي رجل يدعى السيد جلال الهندي مرسل إلى هداية العجم الكورخرديّة (50) خاصة (51). وأضرم نارا ودعا الناس إلى دخولها ليبين لهم قدراته الخارقة بأن النار لا تحرق. فأطاعوا أمره، وصدقوا لأول وهلة من قوله، وأخذوا يتهافتون على تلك (النار) المتقدة، ولسان حالهم يردد (مدد بوهاشم (52) مدد) ظانين أنها لا تحرقهم ولا تلذعهم ولا تصليهم من حرها، وكأنّ أبا هاشم نسي أو تناسى".

الأفغاني والقوى السياسية

لم يذكر عن الأفغاني تدخله المباشر في الشأن السياسي الداخلي، على افتراض أن المذهب الصوفي أبعد ما يكون من الدخول في دهاليز السياسة وتشعباتها بحكم غلبة الجانب التعبدي الروحي على أمور الحكم والسلطان. هذا بالإضافة إلى أن التصوف في دبي كان النموذج الصوفي البسيط، المتمثل في نموذج "علاقة الشيخ بمريديه". ولكن يتبين لنا من خلال حادثتين أن القوى السياسية في عمان ودبي استعانت بالأفغاني اعتقادا منها بأن قوته الروحية مؤثرة في الأحداث.

(49) شاعر وأديب من الشارقة.

(50) تقع في مركز بخش كوخرد و تنبع مدينة بستك أدرابا. و تقع في محافظة هُرمُزكان في إيران: http://www.kookherd.net/arabic/home_ar.htm

(51) أرجح أنهم عبدالله المريدي وعبدالرحيم المريدي.

(52) نرجح بأن بوهاشم، هو السيد محمد عمر الأفغاني، فلم يعرف أحد غيره بهذا الاسم.

الصوفية في دبي من الأفغاني إلى عبدالرحيم المرید

في عهد الشيخ سهيل بن بطي آل مكتوم، جاء سلطان عمان فيصل بن تركي (1888م - 1913 م) إلى دبي، وطلب مقابلة الأفغاني. وحاول إقناعه بأن يذهب معه إلى عمان ويعينه على نصرة إحدى القبائل المتمردة. بشره الأفغاني بأن هؤلاء الجماعة سيصلون إلى موقعة معينة ويهزمون. وتقول الرواية بأن فيصل بن تركي رجع إلى عمان، وبالفعل صدقت نبوءة الأفغاني، وانكسر القوم؛⁽⁵³⁾.

في دبي، تبنت الأسرة الحاكمة (آل مكتوم) التصوف منذ قدومه على يد الأفغاني، وأحسن وفادته الشيخ حشر بن مكتوم (1859 - 1886م)⁽⁵⁴⁾، وتأثرت به بعض شخصيات الطبقة الحاكمة ومنهم، الشيخ سعيد بن مكتوم بن حشر آل مكتوم، حاكم دبي (1912 - 1958م). وتبين لنا قصة استلام الشيخ سعيد للحكم كيف تمت الاستعانة بالأفغاني⁽⁵⁵⁾.

ففي العام 1912م، بعد وفاة الشيخ بطي بن سهيل آل مكتوم (1906م - 1912م)، قام أبناء راشد بن مكتوم وأحكموا قبضتهم على حصن الفهيدي، ليعلموا أمام العامة بأن الحكم لهم، فما كان من المر بن حريز⁽⁵⁶⁾ إلا أن جاء بالشيخ سعيد بن مكتوم إلى السيد محمد عمر الأفغاني وتم إقناعه بأن الحكم الشرعي لسعيد بن مكتوم وأن يدعوا له لكي تميل الناس إليه. فرفع الأفغاني يديه وأمن الحاضرين معه، فرجع سعيد بن مكتوم إلى الحصن، فرأه الناس، وبإيعوه⁽⁵⁷⁾. ويتساءل عبدالغفار حسين: هل هي صدفة، أم قوة الأفغاني الروحية جعلت أفئدة الناس تهوي إلى سعيد بن مكتوم، فهذا محل استفسار؟ ولكن المجتمع في ذلك زمان لديه القابلية للاعتقاد بأن بمباركة رجل صالح كالأفغاني ودعاؤه ساعد سعيد بن مكتوم على تولي زمام الحكم.

(53) مقابلة عبدالرحيم المرید، مصدر سابق.

(54) حسين عبدالغفار، رحيل الصوفي الكبير وزعيم المالدي عبدالرحيم المرید، مقالات نشرت في جريدة الخليج في أكتوبر 2007.

(55) لا يسقط الباحث عوامل الوراثة والتحالفات القبلية التي هي العامل الرئيسي في استلام الحكم.

(56) أحد رجالات الشيخ سعيد بن مكتوم.

(57) يرويها عبدالغفار حسين عن جده عبدالله المرید (مرید السيد الأفغاني)، مصدر سابق.

كان الشيخ سعيد بن مكتوم ممن يحضرون حلقات الأفغاني، وينغمس في أجواء الذكر حتى يغمى عليه، ويقوم السيد محمد عمر الأفغاني ويربت على رأسه، وكان يشهد طقوس ضرب الدبوس ولكنه لم يمارسها⁽⁵⁸⁾.

أعجب الشيخ سعيد بن مكتوم بالنموذج الصوفي في إحياء الموالد النبوية، فأرسل اثنين من أهالي دبي "خليفة الجلاف" وخلفان بن عيد البسطي إلى منقطة (جلاه) في بر فارس لكي يتعلموا فن إحياء الموالد النبوية في عام 1910م، ولكن المشروع لم يكتمل إذ رجع الاثنان⁽⁵⁹⁾.

تأثير الأفغاني

ومن الإشارات التي تدل على شيوع صيت السيد محمد عمر الأفغاني، ومدرسته الصوفية في المنطقة، القصائد المنسوبة للفقير محمد بن حمود الشحي⁽⁶⁰⁾، إذ يقول في قصيدته مادحا فيها محمد عمر الأفغاني⁽⁶¹⁾:

انت الذي سميت محمد عمر سلالة صفوة القهار

نهاية المؤسس

في سنة 1915م قام السيد الأفغاني بشراء مائة بندقية من مسقط⁽⁶²⁾، ليرسلها إلى أفغانستان. وكان طريق تهريب السلاح يمر عن طريق مكران⁽⁶³⁾. فرحل من دبي

(58) المعمري، مصدر سابق.

(59) مقابلة في 1 / 11 / 2010 مع بلال البدور.

(60) نسبة إلى قبيلة الشحوح القاطنة في إمارة رأس الخيمة، راجع: فالح حنظل، الشحوح وتاريخ منطقة رؤوس الجبال في الخليج العربي، الطبعة الأولى، ص 311.

(61) أرجح أنه محمد عمر الأفغاني، على خلاف ما ذكره الاستاذ فالح حنظل، بأنه جمال الدين الأفغاني، والدليل أن القصيدة تضمنت كثيرا من المصطلحات الصوفية مثل: الأقطاب والأبدال.

(62) المرید، مصدر سابق.

(63) مكران، إقليم بطول 1100 كم على ساحل خليج عمان، 700 كم في باكستان والباقي في إيران: <http://ar.wikipedia.org>، تمت زيارة الموقع في يوم 5 / 6 / 2011.

إلى مكران، مروراً بجزيرة السلامة التي تقابل منطقة خصب (التابعة حالياً لمحافظة مسندم)⁽⁶⁴⁾. اكتشفت بريطانيا التي كانت تفرض سياسة حظر السلاح على ساحل مكران، أن الأفغاني قد نجح في إرسال شحنة من الأسلحة إلى أفغانستان، فبدأت تلاحقه. ولكن حاكم إقليم مكران بركات خان⁽⁶⁵⁾، والذي يعتبر أحد مريدي الأفغاني⁽⁶⁶⁾ وفر الحماية السياسية للأفغاني. طلبت بريطانيا من بركات خان إبعاد الأفغاني ولكن قوبل الطلب بالرفض. ونستدل على هذه الحادثة بما أورده بن دغار في كتابه "رحلة الكابتن فلوير"⁽⁶⁷⁾: في العام 1915م يلجأ الثائر الأفغاني خليفة عمر المشهور باسم مولانا⁽⁶⁸⁾ إلى الأمير بركات على ساحل مكران قادماً من دبي، بعد أن اكتشفت السلطات البريطانية كميات الأسلحة التي أرسلها لأفغانستان عن طريق تجار دبي، ويرفض بركات الطلب الذي قدمه الانجليز لوزيره بإبعاده. بعدها عازمت بريطانيا على التخلص من السيد الأفغاني.

أما قصة مقتل الأفغاني، فيقول المريد: "في ليلة التاسع والعشرين من رمضان، أمر الأفغاني حارسه الشخصي أن يتركه وحيداً اليوم، ولم يحمل معه أية سلاح⁽⁶⁹⁾، وراح يتفقد خيوله وجماله، ثم بدأ يصلي، حتى دخل عليه جاسوس الانجليز الملقب بعبدالله قمبر⁽⁷⁰⁾، وخادمه الشخصي قمبر، وبدءا ينهالان عليه بالضرب بالحديد وإطلاق النار، ولكن لا يصيبه شي. هنا تذكر الخادم قمبر مقولة الأفغاني "لا يضرني شي سوى الحديد أو الرصاص إلا إذا كان منجساً". فقاما ونجسا الرصاص بالبول، وأطلقا النار على السيد الأفغاني، فخر صريعاً وهو في التشهد الأخير. تنامي الخبر إلى الحاكم بركات خان، فطلب في أمرهما وتم إعدامهما. وهذه الرواية تطابق رواية بن دغار⁽⁷¹⁾: في أغسطس

(64) مصدر سابق : تسجيل صوتي - مقابلة الشيخ عبدالرحيم - 2005.

(65) في مكران، ويعتبر من أكبر المتورطين في تجارة السلاح على ساحل مكران المير بركات خان، حاكم بيابان.

(66) لمريد، مصدر سابق.

(67) بن دغار، رحلة الكابتن فلوير 1876 عبر الساحل في نهاية عهد الحكم العماني مع ملحق الأحداث التاريخية، الفرات للنشر والتوزيع،

سبتمبر 2008، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ص 250.

(68) يطلق على السيد محمد عمر الأفغاني في بلوشستان "مولانا"، المريد، مصدر سابق

(69) يذكر المريد، بأن الافغاني عندما كان في دبي، دائماً يمشي وهو مبرز بندقيته.

(70) من خلال مقابلة الشيخ المريد، يتبين ان هذا الجاسوس عبدالله قمبر كان يراقب الافغاني منذ تحركاته من دبي إلى مكران، لأنه

صادق خادم الافغاني قمبر قبل رحلتهم.

(71) بن دغار، مصدر سابق، ص 250.

(آب) 1916م مقتل النائب خليفة عمر، مولانا في بيابان، بتحريض بريطاني ويتم إعدام القاتل بأمر حكومة الأمير بركات. وأقيم للسيد محمد عمر الأفغاني ضريح في منطقة جاشك⁽⁷²⁾، وبدأت الناس تتوافد لزيارة قبره. وما زال الضريح قائماً⁽⁷³⁾.

المبحث الثالث: مرحلة الصعود : عبدالله المريد وعبدالرحيم المريد (1916م - 2007 م)

الطريقة الأحمدية الرفاعية عبدالله المريد

بعد وفاة الأفغاني خلفه عبدالله المريد، وانتقلت إليه زعامة الطريقة بحكم أنه أقرب المقربين إلى الأفغاني من غيره، إذ لا يخلف المريد شيخه إلا بعد أن يُجاز، أو يُعطى إجازة منه كما هو متعارف عليه في التقاليد الصوفية. وحسب الروايات المتناقلة أجاز السيد محمد عمر الأفغاني عبدالله المريد وابنه عبدالرحيم المريد. ويرجع له الفضل في إحداث نقلة في حركة التصوف، إذ أضاف عليها الطريقة الرفاعية. يقول ابنه الشيخ عبدالرحيم المريد⁽⁷⁴⁾: "في أيام الأفغاني كان عبدالله يسير على الطريقة القادرية حتى جاء رجل من العراق يسمى أحمد الراوي وكيل مقام السيد أحمد الرفاعي وأعطاه الطريقة الرفاعية⁽⁷⁵⁾. فذهب عبدالله إلى السيد محمد عمر الأفغاني بحكم أنه الشيخ، وهذا مريده يستشير ما إذا يفعل فأشار عليه أن يأخذ بها".

يذكر الشيخ عبدالرحيم المريد من كرامات أبيه الشيخ عبدالله المريد: "طلبنا الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان حاكم ابوظبي (1928 - 1966م) من الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبي، يستأذنه بأن يستضيف والدي (عبدالله المريد) للمكوث في أبوظبي لمدة

(72) جاشك : منطقة في بلوشستان حالياً.

(73) مصدر سابق، المعمرى.

(74) مقابلة أجراها خالد البدور مع الشيخ عبدالرحيم المريد بتاريخ 18 / 03 / 2007.

(75) مؤسس هذه الطريقة الإمام السيد أبو عباس أحمد محيي الدين بن الحسن الرفاعي في العراق (1090م - 1156م).

الصوفية في دبي من الأفغاني إلى عبدالرحيم المريد

شهر، ولكن الإقامة امتدت بنا ثلاثة أشهر وكنا تسعة أشخاص. وبينما نحن نتوضأ لصلاة العصر، جاءنا شيخ من قطر ومعه ثلاثون تلميذاً. قال الشيخ القطري: نحن نقرأ عن كرامات الأولياء الصالحين، ولكننا لم نرها بالعين، لذا فنحن نريد أن نراها الآن. فرد الشيخ عبدالله المريد: موعدنا العشاء عند المولد، فأصر الشيخ القطري على أن تمارس الآن. فبدأت الطقوس وقام شخصان وضربا بالدبوس، وبدأ الشيخ القطري بقراءة القرآن والنفخ عليهما حتى إن كان أمرُ ضرب الحديد سحراً فسيبطله. أمر عبدالله المريد الشيخ القطري بسحب الدبوس، فسحب من الأول ولم يخرج دم، فعجب القطري، ثم سحب الثاني، فتدفق الدم عليه بشكل كبير، فصاح " أوقفوه " ، فجاء عبدالله المريد ووضع أصبعه حتى على موضع الدم فتوقف. بعدها قال القطري: " من كان مع الله كان الله معه، آمنت وصدقت " .

توفي الشيخ عبدالله المريد في أواخر الستينيات ليخلفه في زعامة الطريقة ابنه عبدالرحيم المريد.

عبدالرحيم المريد

هو عبدالرحيم بن عبدالله بن أحمد الكوخردى الملقب بـ المريد. ولد الشيخ عبد الرحيم في دبي في السنوات الأولى من القرن العشرين وتقدر المصادر أنها كانت بين 1900م و1905م. ويذكر الأستاذ عبد الغفار حسين (وهو ابن أخت الشيخ عبد الرحيم) أن ولادة الشيخ كانت العام 1902م، وأن الشيخ كان في العاشرة من عمره عندما توفي الشيخ بطي بن سهيل حاكم إمارة دبي في تلك الفترة وكانت وفاته العام 1912م. ولقصة تسميته بعبد الرحيم حادثه يرويها مريده: " عندما رزق الشيخ عبدالله المريد بعبد الرحيم، ذهب إلى السيد الأفغاني، فسماه الأفغاني بعبد الرحيم تيمناً بعبد الرحيم البرعي " . لا نملك الكثير عن حياة الشيخ في فترة صباه وبداية شبابه إلا أنه ذهب إلى الغوص وهو ابن 12 ربيعاً⁽⁷⁶⁾. ثم أصبح يتاجر بالأقمشة والعلطورات بين المملكة العربية السعودية والكويت،

(76) حوار بين عبدالرحيم المريد وخالد البدور، راجع فيلم المريد.

وتفرغ لحضور حلقات الذكر وإقامة الموالد النبوية إلى آخر أيامه. بدأ عبد الرحيم يتعلم فن الموالد وهو بين الخامسة عشرة والعشرين، يؤدي مولد البرزنجي مع أبيه عبدالله المريد، بعد ذلك تعلم مولد "الهومة". كذلك تعلم من بعض المشايخ الذين كانوا يقيمون الموالد ثاني بن أحمد بن عفصان الذي كان يقيم في منطقة جميرا والشيخ محمد بن رهيف، وعبيد بن سويدان ومحمد بن سليم ومحمد راشد المرر وراشد بن عاضد⁽⁷⁷⁾.

بدأ اسمه ينتشر بين الناس، بسبب أن الكثير من العائلات تطلبه ليقوم الموالد في حفلات الزواج. وبسبب الأداء الجيد والصوت المميز الذي كان يملكه أصبح من القلة المتخصصين في أداء (مالد السماع)، أو الضرب بالدفوف، وكان الشيخ يؤديه كواجب اجتماعي وديني ولم يكن يطلب أجراً. ولم يتعلم الشيخ عبد الرحيم القراءة أو الكتابة على يد أي من العلماء أو المشايخ، حتى بلغ الستين من عمره. أما كيفية تعلمه فلذلك قصة غريبة ذكرها الشيخ وأوردها بعد ذلك الشيخ حمدان المعمرى.

قال الشيخ عبد الرحيم: أن الشيخ عبد الرحمن بن حافظ (والد الشيخ أحمد بن حافظ) أعطاه كتاب (سيرة البرزنجي)؛ وطلب منه أن يقوم بكتابته أو بالأحرى (رسم) حروف كلماته كاملة لأنه لا يعرف الكتابة. في ذلك الوقت لم تكن للشيخ أية معرفة بالكتابة أو بالقراءة. بدأ الشيخ بكتابة حروف الكلمات كأشكال فقط، ثم استمر في المحاولة، وعكف عليها مدة ثلاثة أيام إلى أن انتهى من كامل السيرة. وقد قام بتعلم القراءة وخلال فترة وجيزة حفظ (سيرة البرزنجي) كاملة. وقد قام بحفظ نسخة الكتاب تلك والقراءة منها خلال الموالد، وبقيت معه حتى وفاته. ويحتفظ بالنسخة حالياً الشيخ حمدان المعمرى، وحين ننظر إلى شكل الخط نجد أن الشيخ أجاده إجادة تامة بخط نسخ جميل ومُتقن⁽⁷⁸⁾.

(77) المصدر السابق، خالد البدور.

(78) المصدر السابق، خالد البدور، وقد رأها الباحث أثناء مقابلة حمدان المعمرى.

ضرب الحديد

لم يكن متصوفة دبي بعیدین عن التقالید التي كان يمارسها متصوفة العالم العربي والاسلامي، وقد اشتهروا كثيرا بطقس ضرب الحديد أو ضرب الشيش. وهي ظاهرة شائعة لدى الطرق الصوفية، وبالأخص الطريقة الأحمدية الرفاعية حيث يبدأ الحاضرون بذكر الله سبحانه وتعالى والصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. بعد الوصول إلى درجة عالية من النشوة الروحية يبدأ الحاضرون بترديد "لا إله إلا الله"، "لا إله إلا الله"، عندها يقوم الشيخ بغرز الدبوس، وهو سيخ من الحديد في أعلى الصدر قرب عظم الترقوة للمريد. لا يشعر بالألم من يمارس هذا الطقس لحالة التجلي والقرب من الله ساعتها. وإذا سال الدم فيكفي أن يضع الشيخ إصبعه في الموضع فيتوقف الدم⁽⁷⁹⁾.

في الخمسينات من القرن الماضي شكك الإنجليز بقدرات الشيخ عبد الله والشيخ عبد الرحيم على القيام بتلك الأعمال؛ فجاؤوا إلى دبي في باخرة تسمى "جسوره" إلى بيت المر بن حريز، وهو والد الشیخة حصة بنت المر، حيث أقام الشيخ عبد الله برفقة ابنه الشيخ عبد الرحيم حلقة من حلقات المولد وقام الشيخ عبد الرحيم بإدخال السيف في بطنه وغرز جسده بالدبوس، وقام الإنجليز بتصوير ذلك حيث شاهدوا هذه الممارسة بأعينهم وتأكدوا من حقيقة أنه لا يوجد أي خداع أو إيهام من قبل الشيخ، وقد نشرت الصور التي قام بالتقاطها رونالد كودري في مجلة ناشيونال جيوغرافيك الأمريكية حوالي عام 1958م، كذلك نشرت في كتاب الألبوم العربي للصور الفوتوغرافية التي التقطها كودري⁽⁸⁰⁾.

يروى كودري في مذكراته⁽⁸¹⁾ أثناء قيامه برحلة إلى إمارات الساحل المتصالح

(79) رواد المالد، مصدر سابق، ص7.

(80) يمكن للقارئ ان يراجع النسخة الانجليزية.

(81) انظر النص كاملاً في مجلة "ناشونال جيوغرافيك" العربية، عدد ديسمبر 2010، عنوان المقال: الإمارات في أرشيف ناشيونال

جيوغرافك - إمارات الساحل المتصالح، ص 42 - 43.

ففي اليوم السادس من عام 1954م: " في دبي، سنحت لي الفرصة معاينة العديد من الاحتفالات الغربية. وكان أغربها طقس تؤديه جماعة من الصوفية. جرى الحفل ليلاً، وقاده زعيم ديني كبير في السن، ذو لحية كثيفة مصبوغة بالحناء، ويعاونه اثنان من أبنائه. وكان أغلب الحاضرين من الزنوج والإيرانيين والعرب والبلوش. وكان الحاضرون يجلسون على سجاد مفروش تحت النخل، مصطفين في صفين متقابلين. وفي صف، كان الرجال يحملون طبولا صغيرة، يدفنونها على نار الفحم. وأمامهم، سيف وعدد من الخناجر الموضوعة على الأرض، حيث كان يجلس الزعيم⁽⁸²⁾. وشرح كودري تفاصيل طقس المالد، فيقول: " وعلى دقائق بطيئة وعالية، بدأ الصفان ينشدان باللغة العربية، وأخذ كل واحد يشد على يد زميله، ويقفون على ركبهم ومن ثم على أقدامهم، وينظرون أعلى، كما لو أنهم ينادون السماء ".

وعن طقس ضرب الدبوس يردف قائلاً: " كان الزعيم يدق الأرض بسيفه، فإذا به يوجهه فجأة نحو أحد المريدين، وهو فتى في الرابعة عشرة من العمر. أخذ الفتى يتمايل، واقترب الزعيم، الذي أخذ الخنجر وغرسه في كتفه. وقد واصل الفتى تمايله جيئةً وذهاباً عدة دقائق، إلى أن سحب الزعيم الخنجر وعاد إلى الحلقة. ولم تنزف قطرة دم واحدة، رغم أنني رأيت بأم عيني رأس الخنجر وقد اخترق ظهر ذلك الشاب. ثم أشار الزعيم إلى شخص آخر (تلك الإشارة تعني الحصانة من الأذى). وفي هذه المرة غرس المريد بيده الخنجر في كتفه، ثم سحب الخنجر وتناول سيفاً. وعلى دقائق الطبول وهو راکع على ركبتيه، أخذ يرفع السيف فوق رأسه ويشطر ظهره. بعد ذلك، أمسك السيف من حديه وأخذ يلكز به بطنه العاري ".

توقف طقس " ضرب الحديد " في دبي، بعد أن منع بأمر من حاكم دبي الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم في سنة 2007، ويقول حمدان المعمرى: " أمر المريد أتباعه بعدم العمل بهذا الطقس نزولاً عند كلمة ولي الأمر "⁽⁸³⁾.

(82) ويظهر في النسخة الإنجليزية من كتاب كودري الشيخ عبد الرحيم المريد وهو يمارس طقس ضرب السيف.

(83) مصدر سابق، حمدان المعمرى.

المالد

يتكون "المالد" من صف من الجالسين يحملون بأيديهم دفوفاً ضخمة، يلحون بها في الهواء ويضربون عليها ويبدأ القوم بالنشيد الذي هو عبارة عن كتاب "البرزنجي" الذي يسرد سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وفي مواجهة هذا الصف يجلس عدد من المنشدين وقد تلاصقت أكتافهم يتمايلون يمينا وشمالا. وهناك ثلاثة شروط لابد من توافرها لأداء فن المالد وهي:

أولاً: النص هو عبارة عن كتاب البرزنجي، موضوعها قصة النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

ثانياً: المنشد وعادة ما يكون من الفقهاء الذين تتوافر فيهم القدرة على فهم السيرة وحفظها عن ظهر قلب، وجمال الصوت. كذلك لا بد من أن تتوافر فيه صفة القيادة للفريق المؤدى للفن. ويسمى المنشد "النظيم".

ثالثاً: المنشدون، وهؤلاء ينقسمون إلى مجموعتين، الأولى حملة الدفوف "الطيران"، ويقومون بالضرب عليها برفقة المنشد، وأحيانا يشاركون المنشد في النشيد جماعياً، والمجموعة الثانية ويكون عددها أكثر من المجموعة الأولى حيث يقوم أفرادها بترديد البيت الذي يمثل لازمة النشيد كله، أما المناسبات التي يقام فيها المالد فهي متعددة أهمها الأفراح والأعراس، ولا يكاد يخلو من فن "المالد". كذلك يقام في بعض المناسبات مثل حالات الختان للأطفال والوفاء بالندور. وينقسم فن "المالد" إلى قسمين، الأول تتلى فيه السيرة النبوية وأما الثاني فهو المالد الذي يتلى فيه ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن القصائد التي يكثر من أدائها قصيدة "البردة" للإمام البوصيري وقصيدة نهج البردة لأحمد شوقي، وبعض قصائد شعراء الصوفية.

ويتضمن الأداء في فن "المالد" قصيدة يتبعها توشيح، والفصل الواحد يحتوي

الصوفية في دبي من الأفغاني إلى عبدالرحيم المرید

بالمالد تحت اسم "فرقة المرید للمالد"، وكانت تعمل تحت مظلة جمعية دبي للفنون الشعبية. بتكوين هذه الفرقة أصبح للموالد وللمرة الأولى شخصية اعتبارية وتنظيمية. يكشف هذا عن بعد نظر الشيخ مبكراً لنقل إقامة الموالد من مجرد حلقات خاصة في البيوت إلى أن تكون ذات إطار رسمي يعزز من دورها في المجتمع، كما يساهم في إدارة العمل ضمن إطار تنظيمي، وقد ساهم ذلك في تسهيل العمل على أفراد المالد وازدياد الطلب على إقامة الموالد، وحفظ حقوق المؤدين من خلال حصولهم على مكافآت المشاركة في إحياء الأعراس، مما ساعد على بقاء هذا اللون التقليدي.

تأثر الكثيرون بخبرة الشيخ في الموالد فجاءوا إليه ليتعلموا منه. ومنهم الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن حافظ يقود "فرقة ابن حافظ"⁽⁸⁵⁾، وجمعة جعفر وأبناء الشيخ إبراهيم بن حميدان وغيرهم. كما ساهم المرید في تدريب الجيل الشاب على أداء الموالد وكان يحرص على الجلوس مع الشباب، ويخصص لهم الوقت الكافي للتدرب على الإنشاد والإلقاء وإجادة الألحان والضرب على الدف. ومن مساهماته أن قام بتدريب فرقة وزارة الثقافة للفنون الشعبية على أداء المالد وهي الفرقة الرسمية لدولة الإمارات التي تؤدي فن المالد في المشاركات المحلية والدولية. ومن أهم من لازم الشيخ عبدالرحيم المرید وتلمذ على يديه، إبراهيم بن حميدان وأبناؤه⁽⁸⁶⁾، ومحمد بن عبد الله الحداد، وحمدان المعمرى.

المد العماني الجديد⁽⁸⁷⁾

في العام 1997 يرجع مرة أخرى المد العماني إلى دبي، على رأس شاب طموح يملؤه الفضول في معرفة أسرار التصوف وسر ضرب الدبوس عند الطريقة الرفاعية الأحمدية، هذا الشاب هو حمدان المعمرى. إذ لم يكن في عمان من يضرب بالدبوس إلا فئة قليلة جدا منغلقة على نفسها. وفئة تضرب عن طريق ممارسة الجن.

(85) مصدر سابق، رواد المالد.

(86) من سكان دبي، ويقيمون في منطقة الخوانيج.

(87) مصدر سابق، مقابلة المعمرى.

في بداياته، ذهب المعمري يجوب بعض المدن العربية باحثاً عن " الطريقة الرفاعية لطعن الحديد "، أو ما يسمى ضرب الدبوس. ذهب في البداية إلى مصر يبحث عن إجازة من شيخ لممارسة هذه الطقوس. التقى بشيخ من الطريقة الرفاعية عند مقام علي أبو شباك الرفاعي في القاهرة. وسأله عن إجازة الضرب بالحديد. فقال له الشيخ: " يا ابني شيخك ليس في مصر وإنما في الخليج ". وفي إحدى المناسبات، التقى المعمري بأحد أبناء الطريقة الرفاعية في إمارة الفجيرة " محمد يوسف آل يوسف " ودله على الشيخ عبدالرحيم المرید.

وبدأ المعمري يزور الشيخ مرتين في الأسبوع قادماً من عمان. وكان هو العماني الوحيد الذي يجالس الشيخ. ويذكر المعمري من كان يحضر عند الشيخ: " محمد الحداد، وبعض المصريين والسوريين، وقلة من الإماراتيين ". ويكثر الإماراتيون في المناسبات الدينية مثل المولد النبوي، أو ليلة الإسراء والمعراج. في 1999 أعطى عبدالرحيم المرید حمدان المعمري الأوراد العامة، التي تجعل من المرید ابناً للطريقة الرفاعية ومحسوباً على الشيخ. هنا بدأ المعمري يجمع ما يقرب من 50 شاباً عمانياً حول الشيخ.

ويشرح المعمري كيف يتم اختبار طلبة الشيخ، ففي البداية يراقب الشيخ الطالب في المجلس ويراهل هو محب أم لا، ويستخير الله فيه. ثم يعطيه أول امتحان وهو الاستغفار ثلاثة أيام - مائة ألف مرة " استغفرا الله الغفور الرحيم "، فإن لم يكملها واستصعبها قال له، قد يكون شيخك في مكان ما. وتنقسم الأوراد إلى قسمين: عامة وخاصة. العامة: " لا إله إلا الله " 500 مرة - 200 استغفار، 200 الصلاة على النبي. تعطى الخاصة: بعد أن يعطى العامة بكم سنة، لأنها أقوى وأشد 1600 في اليوم من الأذكار والأوراد.

ظل المعمري لمدة سنتين يلح على الشيخ عبدالرحيم المرید بأن يعطى الإجازة في طعن الحديد. بعدها قال له المرید " أجزنا لك ". حاول المعمري أن يجرب هذا الطقس ولكنه لم يستطع، فاستدعى الشيخ إلى عمان وقال له، لم أستطع الضرب، فرد الشيخ: " لكي تعلم بأنها ليست للعب أو لحب الظهور أمام العامة، وإنما هذه كرامة تخرج في حالة

ظرفية خاصة".

في العام 2000 أعطي المعمري الخلافة "أن يكون خليفة للشيخ المرید في إقامة الحضرات، إقامة الموالد، الطعن (الطعن النفسي والآخرين)، وإعطاء الإجازة في الطريقة الرفاعية"⁽⁸⁸⁾.

في العام 2007 رحل الشيخ عبدالرحيم المرید عن عمر يناهز 105 عام، وبموته ظهر خلاف بين أتباعه على من يتبعه.

المبحث الرابع مرحلة الركود

بعد هذا التاريخ الحافل بإقامة الموالد، وجلسات ضرب الدبوس، والنشوات الروحانية التي كانت تتم أرجاء إمارة دبي. تعيش الصوفية اليوم حالة من الركود في نشاطها وفقدت الكثير من مكانتها على الساحة الدينية. ويعتبر رحيل الشيخ عبدالرحيم المرید في 2007، خسارة كبيرة باعتباره أبرز أعلامها التقليديين وملهميها. إذ بموته فقد التصوف الهالة الروحانية التي كانت تحيط به وتجمع حوله الأتباع، سواء من المواطنين أو الجاليات العربية أو العمانية. وما يهدد إكمال المسيرة ويضعف سلسلة حركة " المرید "، هو أنه ليس هناك أحد من عائلته أو أحفاده اليوم لديه الطموح الديني الذي كان ينبع منه وأبيه عبد الله⁽⁸⁹⁾.

رأينا خلال مسيرة التصوف، خلف عبد الله المرید، السيد الأفغاني، وأدى الخلاف على من سيخلفه إلى الكثير من التصدع داخل الحركة. أهم أبناء بن حميدان أم الشيخ حمدان المعمري؟ اختلفت الأقوال، إلا أن الراجح بأن خليفته من بعده في دبي هم أبناء بن حميدان، وفي سلطنة عمان الشيخ حمدان المعمري. ويتساءل الشيخ عيسى المانع فيما يخص خلافة المرید لشيخه قائلاً: " الشيخ يجيز المرید بالأوراد المسندة، أما مسألة

(88) توجد في مكتبة المعمري في عمان، ويؤكد ذلك ابن الشيخ عبدالرحيم المرید، محمد في مقابلة له في فيلم المرید لخالد البدر.

(89) فيلم المرید، مصدر سابق.

(90) فيلم المرید، مصدر سابق.

أن يخلفني من بعد فهذه لم أسمع بها"⁽⁹⁰⁾.

يبلغ أتباع الشيخ حمدان المعمرى اليوم ما يقرب خمسين شخصاً من سلطنة عمان، ويقيمون المولد النبوى كل أربعاء في منزله. أبرز البيوتات التي تقيم الموالد في دبي:

- منزل محمد الحداد القاطن في الحمريّة.
- منزل إبراهيم ابن حميدان القاطن في الخوانيج.
- منزل الشيخ عيسى المانع القاطن في منطقة الصفا.

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل هذا التراث الروحى الصوى قادر على الصمود أمام المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها دبي؟